



موقع فضيلة الشيخ
د محمد إسماعيل المقدم



شرح كتاب

الدَّاءُ وَالذَّوَاءُ

لفضيلة الشيخ الدكتور

عبد بن عبد بن إسماعيل المقدم

تفريغ المحاضرة الثانية

الدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف أثره عنه إما لضعفه في نفسه (الدعاء نفسه ضعيف) كأن يكون دعاءً لا يحبه الله: دعاء فيه شيء من العدوان مثلاً، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء فيكون بمنزلة القوس الرخو جداً، فإن السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً؛ فهذا **أول الأسباب** التي تحول دون تأثير دواء الدعاء، ضعف الدعاء في نفسه، أو ضعف القلب وعدم إقباله على الله سبحانه وتعالى ساعة الدعاء، **وإما لسبب آخر**: حصول مانع من الإجابة كشخص يأكل الحرام، ثم يتداوى بالقرآن، أكل الحرام مثلاً أو الإصرار على الذنوب؛ فمثل هذه الأشياء تقف مانعاً وحائلاً دون الانتفاع بهذا الدواء.

يقول: "وإما لحصول المانع من الإجابة، من أكل الحرام، ورين الذنوب على القلوب واستيلاء الغفلة، واللغو واللغو وغلبتها عليها كما في مستدرك الحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة".

وفي بعض الروايات زيادة: "واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب لاهٍ" - أو كما قال ﷺ - القلب اللاهي الساهي؛ لا يستجاب دعاءه لكن الإنسان يجمع كل قلبه وهمته وهو يدعو الله تبارك وتعالى ويسأله: "ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافلٍ لاهٍ".

يقول: (فهذا دواء نافع مزيل للداء ولكن غفلة القلب عن الله، تبطل قوته، وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ١٧٢].

ثم ذكر -ﷺ-: "الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب! يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذِيَ بالحرام؛ فأني يستجاب لذلك!" صحيح هو يتعاطى دواء الدعاء، لكن كيف يستجاب له وهذه المعاصي تحول دون وصول هذا الدعاء ونفاذه!؟

وذكر عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب الزهد لأبيه: "أصاب بني إسرائيل بلاء، فخرجوا مخرجاً، فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم: إنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة، وترفعون إليَّ أكفاً قد سفكتم بها الدماء، وملأتم بها بيوتكم من الحرام، الآن حين اشتد غضبي عليكم؟ ولن تزدادوا مني إلا بعداً، وقال أبو ذر: يكفي من الدعاء مع البر، ما يكفي الطعام من الملح".

يعني الإنسان **يعمل البر والأعمال الصالحة** ويدعو حتى لو دعاء قليل، فإن هذا الدعاء في هذه الحالة يثمر ويستجاب ويكون بركة على فاعله، ثم يقول والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه، ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن.

كما روى الحاكم في صحيحه من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: "الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض" لكن هذا الحديث للأسف للأسف موضوع

لكن طبعًا لا ينفي تأثير الدواء، فإن ذلك كان في أحاديث أخرى كثيرة لعل أشهرها الحديث المعروف "الدعاء هو العبادة"، {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}.

للدعاء مع البلاء ثلاث مقامات:

الأول: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه، يكون الدعاء أقوى من البلاء فيدفعه تمامًا.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد، ولكن قد يخففه، وإن كان ضعيفًا.

الثالث: أن يتقاربا ويمنع كل واحد منهما صاحبه، يكونا متساويان فيمنع كل واحد منهما صاحبه لا الدعاء يؤثر ولا البلاء يؤثر، لماذا؟ متعادلين في اتجاهين متضادين فتكون المحصلة صفرًا.

فهذا هو المقصود: يكون متوسط القوة أو مساويًا لقوة البلاء فيتدافعان ويتعالجان ويصطرعان ويمنع كل واحد منهما صاحبه هذه الثلاث مقامات بالنسبة للبلاء مع عدوه الذي هو عدوه الدعاء، وقد روى الحاكم في صحيحه من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة.

يعني **يصطرعان ويتغالبان** إلى يوم القيامة، وفيه أيضًا من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي - ﷺ - قال: "الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء".

وفيه أيضًا من حديث ثوبان رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه.

ثم يقول: ومن أنفع الأدوية: الإلحاح في الدعاء.

تذكرون الحديث من قبل شرحناه، وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أبخل الناس من بخل بالسلام، وأعجز الناس من عجز عن الدعاء".

الإنسان ممكن يحصل أعلى المقاصد سواء في الدنيا، أو في الآخرة بالدعاء فقط يعني يكون مخلصًا في قلبه ويدع الله في بلسانه متواطئًا مع قلبه فيحصل ما شاء من أمور الدين والدنيا فيستدفع ما شاء الله من البلاء ويستجلب ما شاء الله من النعم، بالدعاء

فالدعاء لا يكلف شيئًا ومع ذلك فإذا عجز الإنسان عن الدعاء مع إمكانية أن يحصل على خير عظيم في الدين والدنيا بسبب الدعاء ثم يقصر فلا شك هذا من أعجز الناس وأخسهم هممةً .

لذلك هنا يركز الإمام ابن القيم في مقدمة الدواء الذي كتبه ليعالج هذا الداء المبهم على سبب من أنفع أسباب زوال البلاء وهو الدعاء ثم يركز على طريقة أخرى في العلاج وهو القرآن والأدعية كعلاج لأي علاج آخر يحتاج لفترة، بعض الناس تتصور أنه إذا لم يرق المريض مثلًا إن لم يرقه ويقوم في الحال كما حصل في حديث أبي سعيد وكأنما نشط من عقال!

يعني يشك في نفسه ويشك في هذا العلاج الذي عالج به، كلا! أليس كل دواء يحتاج إلى جرعات وعلى فترات وتكرار، ومواظبة لا بد من هذه الأسباب أيضًا في العلاج الروحاني لا بد من إصرار ومداومة وإلحاح نعبر عن هذا الإصرار والمداومة بالإلحاح؛ فالله تبارك وتعالى يحب أن يسمع تضرع عبده ولجوءه إليه عز وجل بل إن في الحديث يقول: من لم يسأل الله يغضب عليه.

لأن الذي لا يسأل الله قد يمنعه القنوط من رحمة الله أو يمنعه الكبر، فإذا كان الذي يمنحك من أن تدعو الله هو الاستكبار على الله سبحانه وتعالى فما في شك هذا من أقباح الخصال، وإن كان يمنحك القنوط من رحمة الله فإن اليأس من رحمة الله قرين الكفر {إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْكُفْرُونَ} [سُورَةُ يُوسُفَ: ٨٧] كلاهما لا يليق بالعبد المؤمن، ولذلك من لم يسأل الله تعالى يغضب عليه، وقال بعض الشعراء:

لا تسألن بني آدم حاجة - هنا التصغير للتحقير -

وسل الذي أبوابه لا تحجب

الله يغضب إن تركت سؤاله

وبني آدم حين يسأل يغضب

البشر إذا سألت الواحد منهم فإنه يغضب عليك، كيف تسأله وكيف تلحق به المسألة أما الله ﷻ فيغضب عليك إذا لم تسأله .. فأئى كرم فوق هذا الكرم!

لا تسألن بني آدم حاجة

وسل الذي أبوابه لا تحجب

الله يغضب إن تركت سؤاله

وبني آدم حين يسأل يغضب

ويقول الإمام ابن قدامة -رحمه الله تعالى-:

لا تجلسن بباب من يأبى عليك دخول داره...

وتقول حاجاتي إليه يعوقها إن لم أداره...

اتركه واقصد ربها، تقضى ورب الدار كاره...

فمن تعلق قلبه بالله، ألان الله له كل شيء -تبارك وتعالى- فإنه الذي يملك قلوب العباد المقصود: أن الإلحاح في الدعاء أمر مهم جداً وعدم اليأس والاستحقار وترك الدعاء

يقول ابن القيم: ومن أنفع الأدوية: الإلحاح في الدعاء، وقد روى ابن ماجه في سننه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: من لم يسأل الله يغضب عليه .

وفي صحيح الحاكم من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم : لا تعجزوا في الدعاء فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد.

ومع أن الحديث معناه جميل لكنه ضعيف جداً لا تعجزوا في الدعاء يعني: لا تضعفوا ولا تفتروا في الدعاء ولا تهونوا من شأنه فتظنوا عدم فائدته لكن ادعوا ريكماً تضرعاً وخفية وأنتم موقنون بالإجابة: "لا تعجزوا في الدعاء فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد." هذا ضعيف جداً، وذكر الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله -ﷺ-: "إن الله يحب الملحين في الدعاء"، وهذا الحديث موضوع .

وفي كتاب الزهد للإمام أحمد عن قتادة قال: قال مورق: "ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا رجل في البحر على خشبة" تخيل نفسك كنت في سفينة، وغرقت السفينة، وهناك خشبة لوح من الخشب فقط هذا الذي تتعلق به وتمسك به، فيعني كسبب من الأسباب للنجاة من الغرق فهذا كمثل المؤمن في كل أحواله " ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا رجل في البحر على خشبة فهو يدعو: يا رب يا رب لعل الله عز وجل أن ينجيه." فهذا حال المؤمن والدعاء هو هذه الخشبة الذي يستعصم بالدعاء كي ينجيه الله تبارك وتعالى، فهذا شأن المؤمن في هذه الفتن التي تموج كموج البحر يستعصم بالدعاء، بدعاء الله تبارك وتعالى.

يقول: ومن الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه : أن يستعجل العبد، ويستبطن الإجابة، فيستحسر ويدع الدعاء هذه من التعجل لحصول الإجابة، هذا من الأشياء التي تمنع تأثير الدعاء؛ فهذا بمنزلة من بذر بذراً أو غرس غرساً، فجعل يتعاهده ويسقيه: يتعاهده بالسقي والريعية، فلما استنبط كماله وإدراكه تركه وأهمله: فهذا بالضبط مثلاً من يستحسر ويترك الدعاء ويتعجل الإجابة، وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله -ﷺ- قال: "يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوتُ فلم يستجب لي. -فترك الدعاء- " فإذا مفهوم هذا الحديث: أنه إذا عجل لا يستجاب له، لكن يستجاب له ما لم يعجل، إذا واطب بالاحاح في الدعاء والإصرار على طلب حاجته من الله عز وجل، وفي صحيح مسلم عنه مرفوعاً: لا يزال يستجاب للعبد، ما لم يدع بائئماً أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل.

يبقى لا بد من موانع إجابة الدعاء أن يكون الدعاء فيه إثم واحد يقول يسأل الله مثلاً أن يبسر الله له خمراً يشربها أو رشوة يريد أن يرتشيها، هذا يدعو بائئماً فكيف يستجيب الله له؟ يستعين بالدعاء على معصية الله أو يدعو بقطيعة رحم أو يستعجل، هذا أيضاً من موانع استجابة الدعاء، "لا يزال يستجاب للعبد، ما لم يدع بائئماً أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال يقول: قد دعوت، وقد دعوت، فلم أر يستجاب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء"، وفي مسند أحمد من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله -ﷺ- : " لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل ، قالوا : يا رسول الله كيف يستعجل ؟ قال : يقول قد دعوت ربي فلم يستجب لي " .

ثم يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "وإذا جمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة، وهي: الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم، وآخر ساعة بعد العصر".

فيذكر أنه لا بد للإنسان في الدعاء أيضاً أن يتحرى أوقات الإجابة لأن هذا يكون أنجح وأرجى لقبول دعائه، لأن في هذه الأوقات أوقات تجلي يستجيب الله ﷻ لمن يسأله، فنذكر أولاً أن يجتمع، يجمع قلبه ويركز بهمته وقلبه على المضمون، أيضاً أن يصادف الدعاء وقتاً من أوقات الإجابة، وطبعاً ممكن أن نقول مكاناً من أماكن الإجابة؛ لأن هناك بعض الأماكن يرجى بها قبول الدعاء أكثر من غيرها كالحرم الشريف مثلاً وغير ذلك.

من أوقات الإجابة

- أول شيء الثلث الأخير من الليل.
- وعند الأذان وبين الأذان والإقامة.

- وأدبار الصلوات المكتوبات: المقصود أدبار الصلوات المكتوبات يعني قبل التسليم والله أعلم.
- وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم: على أساس أن هذه من المواضع التي قيل أنها هي ساعة الإجابة من يوم الجمعة.
- وآخر ساعة بعد العصر: آخر ساعة بعد العصر يعني قبل المغرب.

مظنة الإجابة

- أن يصادف خشوعًا في القلب.
- وانكسارًا بين يدي الرب.
- وذلاً له وتضرعًا ورقة.
- واستقبل الداعي القبلة.
- وكان على طهارة.
- ورفع يديه إلى الله.
- وبدأ بحمد الله والثناء عليه.
- ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ.
- ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار.
- ثم دخل على الله، وألح عليه في المسألة، وتملقه ودعاه رغبة ورهبة .
- وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده .
- وقدم بين يدي دعائه صدقة، فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبدًا، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ .

إذا الأمر سهل لكن يحتاج نوع من الفقه.

فقه بأن يصر على الدعاء وأن يلح فيه، لا يستعجل، لا يدع باثم ولا بقطيعة رحم، ثم يجمع قلبه على المطلوب، ثم يتحرى وقت من أوقات الإجابة، وطبعًا هي أوقات الإجابة لا تنحصر في هذه الستة يعني: في أوقات إجابة وأماكن إجابة وأشخاص يرجى إجابة دعوتهم:

مثلاً

- الابن البار بوالديه.
- أو دعاء الأب لابنه وهكذا.

يتحرى كل هذه الأشياء إذا أراد أن يدعو، ثم خشوع القلب والانكسار بين يدي الله عز وجل. ذكر أيضًا بعض الآداب في الدعاء طبعًا هذه آداب ليست شروطًا يعني: يصح الدعاء بدونها لكن هذا أكمل:

- يستقبل الداعي القبلة.

- ويكون على طهارة.

- ويرفع يديه وهو يدعو إلى الله عز وجل.

ويبدأ في الدعاء:

أولاً **بِحَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ**: لأن هذا هو الأدب الذي علمنا الله إياه في الفاتحة، انظر في الفاتحة { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } { ٢ } الثناء على الله، { الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } { ٣ } مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ { ٤ } إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ { ٥ } ثم بعد ذلك الطلب والسؤال { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } { ٦ } فمن آداب الدعاء تقديم حمد الله أولاً والثناء على الله تبارك وتعالى.

ثم ثنى **بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ**: لقول النبي عليه الصلاة والسلام: "كل دعاء محبوب حتى يصلى على محمد وعلى آل محمد" **صلى الله عليه وسلم**، ثم بعد ذلك يبدأ بالتوبة والاستغفار قبل أن يطلب حاجته يبدأ بالتوبة والاستغفار بين يدي دعائه.

ثم دخل على الله وألح عليه في المسألة وتملقه ودعاه ورغبة ورهبة وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده **وقدم بين يدي دعائه صدقة مما يستحب أن تعمل عملاً صالحاً**: قبل أن تدعو الله تبارك وتعالى ليقضي حاجتك.

اعمل عملاً صالحاً! يعني بعض الناس، أو الصحيح طبعاً الصحيح أن الأحاديث الواردة في صلاة الحاجة لا تصح عن النبي صلى الله عليه وسلم لكن ليس معنى أنها لا تصح أنه مثلاً إنسان يريد أن يدعو الله ويريد أن يقدم عملاً صالحاً بين يدي دعائه يمكن أن يصلي ركعتين لوجه الله لأنه عمل صالح

يصلي ركعتين: ثم يدعو الله ما في بأس من ذلك لا نقول هي صلاة الحاجة ولا نقول هذا عمل بحديث ضعيف لكن هذا عمل صالح يدخل في عموم الآداب المعروفة عند إرادة الدعاء سواء هذا العمل الصالح كان صدقة، سواء كان صلاة ركعتين أو أكثر، سواء كانت قراءة قرآن أي شيء من الأعمال الصالحة تفعله قبل أن تدعو الله تبارك وتعالى، وهذه سنة موجودة في القرآن { رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا } هذا التوسل بالأعمال الصالحة، فهم قدموا أولاً العمل الصالح { رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا } يذكرون بين يدي الدعاء عملاً صالحاً بل هو أعظم الأعمال الصالحة، وهو الإيمان { رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ } وهذا كثير في القرآن { رَبَّنَا ءَامِنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ } [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٥٣]

هنا قدموا أيضاً التوسل بالإيمان وبالعمل الصالح، ثم يحث الإمام ابن القيم -رحمه الله تبارك وتعالى- طبعاً كما ذكرنا أي عمل صالح: يعني ممكن مثلاً بر الوالدين، قراءة القرآن **صلاة ركعتين**، واحد يصوم لله عز وجل **الصيام**، أي شيء من الأعمال الصالحة قبل الدعاء تتصدق صدقة حتى يقبل دعاؤك فهذا أرجى لقبول هذا الدعاء.